قراءة مُقارنة بين النظرية الدلالية والنظرية التحويلية في الدرس اللّساني الحديث

د . محمد حدوارة
جامعة تيارت

ملخص البحث:

يعالج هذا البحث بين دفتيه دراسة لغويه تقارن بين النظريه الدلالية والنظريه التحويلية في الدرس اللّساني والتي تظر لنا بوجود تطابق. بين القواعد التحويلية التي تتطابق تماما مع ما يدرسه علماء اللّغة العربية في البلاغة من تقديم وتأخير...وغيرها. لذا نجد الدراسات اللغويه ممثله في رائدها الغربي "تشومسكي" قد سعى هو وغيره في بذل جهود كثيره لإضافة جهود معتبرة في هذا المجال.

الكلمات المفتاحية:النظرية ، التحويلية ، علم الدلالة ، البنية العميقة ، البنية السطحية.

Résumé :

Cette recherche traite une étude linguistique tout en comparant la théorie du signe et celle d'une transformation au sein de cet essai. Cela nous amene à une adéquation parfaite entre les règles transformatrices et les études des linguistes arabes sur la phonologie... etc. C'est pour cela que nous trouvons des études linguistiques occidentles . la plus marquantes était celle de Noam chomski qui n'a cessé d'apporter des innovations.

les mots clés La théorie, Transformation, semantic , Structure profonde , Structure de surface.

مدخل البحث:

إنّ النزوع نحو تأسيس نظري للمبحث الدلالي العام كان ولا يزال دأب الدراسات التي تناولت مسألة المعنى ورمت إلى بلورة أفكارها ضمن رؤى تنظيرية تتوخى الشمولية في الدراسة العالمية وفي الأهداف.

كما أنّ التراكم الفكري اللّغوي انطلاقا من مدرسة "براغ" التي ركّزت اهتمامها على الصوت الدلالي مهتمة بدراسة العلامة اللّغوية، وقد رسمت للّغويين الحداثيين اتجاها يكاد يكون واضحا نحو إرساء علمي لنظرية الدلالة، ولا يمكن إغفال هذا الجهد المضني الذي قدّمه العالم اللّغوي" "دي سوسير(De Saussure)، إذ كانت أفكاره وآرائه ومنهجه في الدراسة، الألسنية أكبر أثر في مسار علم الدلالة الحديث، وتحديدا للإطار النظري العام، سنعرض النظرية الدلالية عند "فورد وكارتز"(Ford et Kartz) وأهم المبادئ التي تميزت بها هذه النظرية وأهم الانتقادات التي قُدمت لهم.

وكما سنتعرض في هذا الإطار العام للنظرية التوليدية التحويلية وبُناها التركيبية وأهم المبادئ التي تمسّك بها السلوكيون رغم الانتقادات التي تعرّضوا لها من قبل "تشومسكي"(Chomsky) نفسه، وبصبغة تنظيرية تحليلية نحاول استعراض أهم هذه الإشكاليات محاولين الإجابة عنها في بحثنا هذا.

أولا: الإطار المنهجي: تحليل المقال:

I.تحديد المفاهيم والمصطلحات:

1) تعريف علم الدلالة:

من بين العلوم التي لها ارتباط وثيق بالدرس اللّساني هي علم الدلالة أو بما يعرف بالسيماتيك (La sématique) وهو علم دراسة المعنى، وقد حدده "بيار غيرو"(Pierre Guerreau) بقوله بأنّه:" علم دراسة معنى الكلمات"[1].

وقد عرفه "يانسن"(Janssen):" هو العلم الذي يبحث في معني الكلمات وأجزاء الجمل، والجمل ونعني بذلك علم الدلالة اللّغوي، أي ذلك العلم الذي يبحث في اللّغات الطبيعية عندما تعتمد على نظرية معينة لتفسير المعنى"[2].

2) نشأة علم الدلالة:

إنّ قضية المعنى ودراسته موضوع شاع فيه مفكرين وعلماء من ميادين مختلفة، كلّ من وجهة نظره وفي مجال تخصّصه، وقد نَتَج عن اشتراك اللّغويين وغير اللّغويين في دراسة المعنى أنّها ظهرت نظريات كثيرة ومناهج خاصة بالمعنى، وأدّى ذلك إلى إساءة فهم مشكلة المعنى ممّا دعا بعضهم إلى إهماله وتجنّبه.

وأمّا في أوائل القرن التاسع عشر ظهر عمل لغوي ضخم للعالم السويدي "أودولف نورني"(Odolf Nurney) بعنوان لغتنا خصّص قسما كبيرا منه لدراسة المعنى، وقد كان سبّاقا في كثير من النتائج التي توصّل إليها، وكانت أفكاره أساسا لكثير من النظريات التي طوّرها اللّغويين الأوربيين والأمريكيين فيما بعد، ثمّ ظهر ذلك العالم "ماكس مولار"(Max Muller) وكان ممّن ساهم في وضع أسس دراسة المعنى، ممّا يضاف لهذا دراسة "ميتشل بريال"(Mitchell Brill) أثر في لفت أنظار اللّغويين، فتعّ دراسته أوّل دراسة حديثة خاصة بتطوّر معاني الكلمات[3]. وهذه تعتبر من ثمار جهوده التي كان لها أثر في الدرس الدلالي الحديث.

3) أهم علماء النظرية الدلالية:

لقد ارتبط علم الدلالة في العصر الحديث بمجموعة من العلماء ونذكر منهم:" أودولف نورين" وفندريس وما بيه وماكس ميلر وميتشل بريال وكريستوفر نيروب وأ وجدن ورتشارد وغوستاف ستيرن زديسوسيير وبلوم فييد وتشومسكي وروجر فولر وأولمان كروتسبسكي وترير وبرجمان وستيوارت تشيز وجون ليونيز وفيرث (...)وغيرهم[4]. الذن تعدّ أعمالهم مهدت للدرس الدلالي وكان لها الوقع الكبير في الحفر في أرض المعنى.

1.3) النظرية الدلالية عند "كارتز وفورد"(Cartes et Ford):

تهتم هذه النظرية بتحليل الكلمات إلى مكوّنات وعناصر، وقد قدّم "كارتز وفورد" (Cartes et Ford) تحليلا مميّزا للكلمات ودلالتها وقد لخصها في ذلك ثلاثة عناصر أتّخذت كمفاتيح للتحليل وتحديد المؤلّفات التي تشكّل الكلمة، وذلك لتعيين دلالتها، وهذه العناصر هي: المحدّد النحوي، المحدّد الدلالي، المكوّن التركيبي.

وتكمن أهمية هذه النظرية تكمن في طابعها الوظيفي، إذ تُستَخدَم في كثير من المجالات من مجالات اللّغة المجاز والترادف والمشترك اللّفظي، لأنّ نظرية الحقول الدلالية تهتم بالنمط التصنيفي ودلالاتها، وبالاعتماد على التحليل التفريعي للصيغة فهي تلتقي مع النظرية التحليلية التي تقوم بتحديد مؤلّفات الكلمة.

4) مبادئ وخصائص هذه النظرية:

أ) - تقوم هذه النظرية على المحدّد الدلالي الذي يقوم بتخصيص معنى شامل لكل تركيب انطلاقا من الدلالات الفردية (المورفيمات)(Morphologie) التي تؤلّفه وتبعا للطريقة التي تتألّف لها هذه المورفيمات.

ب) المميّز يشرف على تلك الوظيفة التمييزية، ويقتضي ذلك وجود تضاد بين الوحدات المميّزة من ذلك التضاد الصوتي القادر على التمييز بين كلمتين من حيث المعنى مثلا تاب وناب[5]. لذا فوجود (التاء)في تاب مكان (النون)في ناب قد ميّز بين دلالة هاتين الكلمتين، حيث يقوم المحدّد النحوي بوظيفة التمييز بين الدلالتين للصيغة الواحدة نأخذ إحداها في تركيب الوظيفة الفعلية، فالوظيفة الفعلية تتمثّل في كلمة يريد من خلالها تحديد دلالة الصيغة اللّغوية التي يتم من خلالها مقارنة صيغة بصيغ أخرى داخل الحقل المعجمي(Le champ lexique)، كما ذهب إل ذلك العالم "دي سوسير" بحيث نظر إلى المعنى على أساس أنها مجموع تقابلات الصيغة المنتجة مع بقية الصيغ الأخرى، فكلها تنتظم في حقول دلالية وكل حقل دلالي له جانبان: يتمثّل الأول في الحقل المعجمي، ويتمثل الثاني في الحقل التصوّري.

يبدو أنّ مدلول الكلمة مرتبط بالكيفية التي تعمل بها مع الكلمات الأخرى في نفس الحقل المعجمي لتغطية أو تمثيل الحقل الدلالي حيث تكون الكلمتان في نفس الحقل إذا أدّى تحليلها إلى عناصر تصوّرية مشتركة، بقدر ما يكثر عدد العناصر المشتركة بقدر ما يصغر الحقل الدلالي.

1.4) المكوّن التركيبي:

يقوم بخلق دلالات إضافية، وذلك لاحتوائه على المكوّن الأساسي الذي هو جملة من قواعد إعادة الكتابة، أمّا المكوّن التحويلي الذي يحدّد معه المداخل المعجمية وبالكتابة التركيبية لبنيته العميقة تتمّ عملية الاستبدال من خلال تحويل القواعد إلى جمل وتراكيب سطحية، ثم تحليل الصيغة إلى مكوّناتها التي من خلالها تحدّد مجالها الدلالي بتطابقها مع صيغ أخرى لها نفس المكوّنات.

وكما قد تكون للصيغة المعجمية دلالتها المميّزة إذا احتوت على مكوّنات تمييزية، ومن هذا يوضّح ذلك "مختار أحمد" بقوله: "أنّ معنى الكلمة طبقا للنظرية التحليلية هو طاقم الملامح أو الخصائص التمييزية وكلما زادت الملامح لشيء ما قلّ عدد أفراده والعكس صحيح، كذلك على هذا يمكن تضييق المعنى وتوسيعه عن طريق إضافة ملامح أو حذف ملامح"[6].

لذلك فقد أحصى أصحاب نظرية الحقول الدلالية(Théorie du champ sémantique) علاقات يتمّ بموجبها تعيين قيمة الصيغة اللّغوية داخل الحقل المعجمي، ولذا نجد من أكّد الطرح من الغربيين "ستيفان أولمار" (Stefan Olmar) في أعماله، والذي يدور كلامه حولها جاعلا مكانها في حقل نظام من العلاقات التي تظهر من خلال إحصائها وهي ممثلة كالآتي في ترابطها بكلمات أخرى في المادة اللّغوية.و تظهر علاقتها في:

أ) علاقة الترادف: والتي تعني أنّ كلمتين أو أكثر بمنطق النظرية الدلالية يتضمّن نفس المكوّنات ولديه عناصر تصوّرية متماثلة، ويكون الترادف إذا كان هناك تضمّن من جانبين فـ (أ) و (ب) مترادفان إذا كان

يتضمّن (ب)، و(ب) يتضمن (أ) مثل(أب) و(والد) وعليه تصنيف الوحدات المعجمية ضمن حقول بمعيار ترادف[7].

ب) علاقة الاشتمال: وهي تشبه علاقة الترادف إلاّ أنّها تضمن من جانب واحد يكون (أ) مشتملا على (ب) حين يكون (ب) أعلى في التقسيم أو التفريع مثل (الإنسان) و (خالد)[8].

ت) علاقة الجزء بالكل: وهي مثل علاقة اليد بالجسم، والفرق بين هذه العلاقة وعلاقة الاشتمال أو التضمّن واضحة، فاليد ليست نوعا من الجسم ولكنها جزء منه بخلاف خالد الذي هو نوع أو جنس من الإنسان وليس جزء منه[9].

5) التضاد(Contradiction):

1.5) التضاد الحاد: ويسمّى النوع من التضاد غير المتدرّج مثل (حي، ميّت) فهما كلمتان متقابلتان في الدلالة ونفي أحد طرفي التقابل يعني الاعتراف بالآخر.

2.5) التضاد المتدرّج: فهما قد يكذبان معا، لمعنى أنّ شيئا قد لا ينطبق عليه أحدهما، إذا بينهما وسط فقولنا: الحساء ليس ساخنا لا يعني الإعتراف ضمنيا بأنه بارد، فربما يكون فاترا أو دافئا أو ما إلى ذلك[10] .

3.5) علاقة التضايف: وهذا النوع من التضاد ما يسمّيه المناطقة "الإضافة"، وهي نسبة بين معنيين كلّ منهم مرتبط بالإدراك الآخر كإدراك الأبوة والنبوة، فإنّ إحداهما لا يدرك إلّا مع إدراك الآخر[11].

4.5) علاقة التنافر: أو يطلق عليه في علم المنطق بـ (علاقة التخالف) وهي اتّحاد معنى ومعنى آخر مع المكان والزمان، أي يمكن اجتماعها معا في شيء واحد في زمان واحد مثل (كأكل، باع) و(الطول، البياض).

إنّ الاعتقاد بالضرورة إحداث تقابلات بين مجموع الألفاظ المتماثلة أو المتباينة يعكس حقيقة العملية الدلالية التي تتمّ في مستوى ذهني معقّد، إذ التقاط دلالة صيغة ما يتمّ به سلسلة من التقابلات الذهنية التي يقوم بها السامع، أي إنتاج دلالة الصيغة تتمّ بواسطة عملية التقابل بينهما وبين صيغ أخرى بإحدى العلاقات التي حدّدها اللّغويون والتي أشرنا إليها سابقا".

6) أهم الانتقادات الموجّهة إلى النظرية الدلالية:

ومّما لا شكّ أنّ التمييز والقصور سمة كل دراسة قائمة على وجهة النظر والتحليل والتصوّر، وهذا ما حصل لنظرية الحقول الدلالية التي لعبت دورا هاما في دراسة المعنى. وبالرغم من ذلك فقد وجّهت لها انتقادات كثيرة[12] نذكر منها:

1- النّقد الذي وجّهه "شايد فايلر وباتر"(Shade Feyler et Patr) للنظرية بأنّها لم تُبنى على أسس استقرائية، إذا لم تقم على قواعد أو أسس في النصوص التي بحثها "ترايز"(Trèves). وقد أثبت "بارت ران"(Bart Ran) تصوّر "ترايز" عن الحقل لم يقم على عمل تجريبي على أساس فلسفي.

2- عدم الاهتمام بالسياق الذي تردّ فيه الكلمة بعد أن اتّضح الآن أنّ دلالة الكلمة لا تتّخذ إلّا في إطار السياق سواءا أكان سياق مقام أم سياقا عاطفيا.

3-مشكلة الحدود الخارجية بين الحقول الدلالية، حيث صرّح بأنّه لا يتوقّع أن توجد خطوط واضحة بينها، لأنّ المحتوى اللّغوي يمتد من حقل إلى حقل دون فراغات، كما أنّ خيوط الربط بين الحقول ليست منقطعة تماما.

وأخيرا لم تسر النظرية وتطبيقها العلمي ونتائجها المادية عند "ترايرر" ومن اتّبعه من اللّغويين في طريق واحد.

7) النظرية التوليدية التحويلية عند "تشومسكي":

1.7) مفهومها:

ملخص هذه النظرية ينبني على أنّ هناك تركيبات أساسية تشترك فيها اللّغات جميعا، وأنّ وظيفة القواعد التحويلية في هذه النظرية تحويل تلك التراكيب الأساسية (Deep Structures) إلى تراكيب سطحية (Surface Structures)، وهي التراكيب المنطوقة فعلا، ويسمعها السامع[13]، وعملية وصف العلاقة بين التركيب الباطني والتركيب الظاهريّ تسمّى تحويلا (Transformation) أو قانونا تحويليا (Transformation Rule)، والعلاقة بين التركيبين تشبه عملية كيمياوية يتمّ التعبير عنها بمعادلة أحد طرفيها المواد قبل تفاعلها. (Input) والطرف الآخر هو الناتج بعد التفاعل[14]، وبمعنى آخر "فإنّها القواعد التي تُضفي على كل جملة تولّدها تركيبين: أحدهما باطني أساسي، والآخر سطحي، وتربط التركيبين بنظام خاص".

يرفض "تشومسكي" تحويل اللّغة إلى مجرّد تراكيب شكلية يسعى الوصفيون إلى تجريدها من المعنى ومن العقل في هذا الوصف السطحي الذي صوّره "دي سوسير"، كما يرفض معاملة "باعتباره آلة تتحرّك حسب قوانين حدّدتها مواقف معيّنة، فالإنسان في نظره لا يختلف عن الحيوان بقدرته على التفكير والذكاء فحسب، ولكنه يفترق عنه بقدرته على اللّغة"[15]، وذلك أنّ الظاهرة اللّغوية كظاهرة عقلية لا يمكن تفسيرها بالفعل ورده كما كان يعتقد سابقا، وإنمّا بمحاولة دراسة القابلية اللّغوية لدى الإنسان، وأنّه لا يمكن الوصول إلى ذلك إلّا إذا توسّع الدرس اللّغوي فشمل إلى الجوانب الظواهر اللّغوية أو التراكيب السطحية اللّغوية، التراكيب العميقة التي تطرأ على هذه التراكيب أن تصبح ظاهرة"[16]، "فتشومسكي" يرفض النظرة الآلية إلى اللّغة من حيث كونها عادة كلامية من خلال المثيرات والاستجابات، ويرى أنّ الطفل يكتسب لغة البيئة التي ينشأ فيها اعتمادا على مقدرته الفطرية على اكتساب اللّغة، تلك المقدرة التي يطلق عليها مصطلح الكفاءة اللّغوية أو القدرة الإبداعية.

2.7) أعلامها:

يُعدّ "أفرام نعوم"(Avram Noam) الأب الروحي والمؤسّس لهذه النظرية(La théorie)، وُلد في السابع من ديسمبر عام(1928م)في مدينة "فيلادلفيا" بولاية "بنسلفانيا" بالولايات المتحدة الأمريكية "لواد كان" يدعى "وليام تشومسكي" (1928-1976) هذا الأخير الذي كان قد هاجر من روسيا عام(1913م)بغية التهرّب من تجنيده في صفوف الجيش القيصري، ليصبح فيما بعد العالم البارز في مجال اللّغويات.

تلقى "تشومسكي" تعليمه في إحدى مدارس "ديوايت"(Dwight) التي كانت تشتهر بتقدّمها في أساليب التعليم، وعلى إثرها كان "تشومسكي" لا يزال صبيا غضا في فترة الكساد الاقتصادي الكبير الذي اجتاح الولايات المتحدة الأمريكية عامي(1929-1939م)، حيث تأثّر عظيم التأثير بما شاهده من عمليات القمع التي

مارستها السلطات الحكومية لإفساد الإضرابات التي قام بها العمال، فضلا عن الامتهان واليأس والقنوط الذي كان العمال يتجرّعونه وطالما أفضى بهم إلى التهوّر.

وكما قد تتلمذ "تشومسكي" في جامعة "بنسلفانيا" على يد "زيليج هاريس"(Zelig Harris) وهو أستاذ اللّغويات، والذي كان من شأن آرائه التحرّرية التي كانت تصطبغ بصبغة شبه فوضوية أن تركت آثارها الواضحة على انتماءات "تشومسكى" الأساسية، حيث نبتت أعمال "تشومسكي" الأولى في حديقة هاريس.

وإذا أردنا أن نوجز القول أنّ هذا العلَم اللّساني عندما نشر أوّل كتاب لساني له يحمل عنوان القوة فإنّه بنى أفكاره كناقد راسخ العزم للظلم الاجتماعي لتتلخّص فلسفته الاجتماعية في جملة من الأفكار هي:

✓ الكيفية التي تفرضها مؤسسات القوى تحكمها وسيطرتها على جماهير العامة.

✓ الكيفية التي باع بها المثقّفون ضمائرهم وخانوا مجتمعاتهم المحلية وآثروا أن يكونوا أذنابا تخدم سلطة الدولة. وقد أماطت الانتقادات الحادة التي وجّهها "تشومسكي" ضدّ سياسة الولايات المتحدة الأمريكية الخارجية على وجه الخصوص اللّثام عن:

أ- العنف الضارب أنابه في كافة أنحاء العالم نتيجة لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية الخارجية الموصومة بالإمبريالية.

ب-مفهوم الذّات الملفق والمختلف الذي روّجت له الولايات المتحدة الأمريكية وإشاعته في كل مكان وعلى كل لسان، باعتبارها دولة حسنة النية و "خيّرة بالأساس".

ج-تزييف الواقع والتلاعب بمجرياته نتيجة لذلك المفهوم المعيب الذي تدّعي الولايات المتحدة الأمريكية بموجبه الصلاح لنفسها بأنّها دائما أَقْوَم أخلاقا من أية دولة أخرى [17].

3.7) أصولها المعرفية:

من الواضح أنّ "تشومسكي" أقام هذه النظرية مرتكزا على أسس عقلية منذ أن نشر كتابه "التراكيب النحوية(1957م)"، حيث سعى إلى إقامة نظرية عامة للّغة تصدُر عن اتجاه عقلي، لأنّ اللّغة عنده عمل عقلي يتميّز به الإنسان عن الحيوان، وقد تأثّر في ذلك بما جاء عن الفيلسوف الفرنسي"رينيه ديكارت"(René Descartes) في القرن السابع عشر الذي أصلّ فكرة "الطابع الإبداعي والخلاّق في اللّغة"، وذلك عند تفريقه بين الإنسان والحيوان على هذا الأساس، ويقول في هذا الصدد "ديكارت": "لا يوجد كما هو جدير بالملاحظة أيّ إنسان مهما بلغت درجة بلادته أو غباوته إلّا ويستطيع أن يركّب كلمات متنوّعة في تركيب واحد، وأن يؤلّف خطابا يعبّر من خلاله عن أفكاره، وعلى العكس من ذلك لا يوجد أي حيوان آخر يقوم بذلك"[18].

يبدو أنّ نظرة "تشومسكي" العقليةمصوبة للّغة وأنّها خاصة بالجنس البشري فحسب، تسير بنا إلى نقطة مهمة وهي قضية اكتساب اللّغة وتعلّمها، لكنه لا يسلم بالنظرية السلوكية في اكتساب اللّغة، حيث يرى "أنّ النظرية السلوكية للاكتساب غير قادرة على تفسير هذه القضية، وتقف عاجزة عن تفسير هذه القدرة التي تمكّن الطفل من بناء جمل نحوية"[19]، ويفترض أنّ الإنسان قد وهب ملكة لغوية أو قدرة لغوية، وأنّ الطفل يولد مزوّدا بقدرة دقيقة من الأصول النحوية الكلية التي تمكّنه من التعرّف على ما يسمعه من كلام يتردّد من حوله، وهذه

الأصول اللّغوية الكلية هي جزء ممّا نسمّيه العقل، وقد ظهرت هذه الفكرة واضحة جلية في كتاباته الفلسفية وبخاصة في كتبه (العقل وعلم اللّغة الديكارتي، وملامح النظرية النحوية).

وقد تكون هذه الفكرة التي تبناها "تشومسكي" ربما لا يكون قد أصاب في كل انتقاداته للنظرية السلوكية في اكتساب اللّغة وتعلّمها، وربما يكون قد غالى في مسألة الملكة اللّغوية والقدرة اللّغوية ولاسيما لدى الطفل الذي لم يتسنّ له سماع اللّغة بأصواتها ونحوها السليم من والديه أو أشخاص قبله، فلو أمكن أن يوضع طفل في معزل عن المتكلّمين ولم يسمع أي لغة قط فأنّى له أن ينسج لغة متكاملة بمفرده؟.

وكما قد تأثّر "تشومسكي" بأفكار "ديكارت" فقد تأثّر كذلك بأفكار الفيلسوف الألماني "همبلوت" (Hemplot) وهو صاحب فكرة الجانب الخلاّق في اللّغة، حيث يرتبط الجانب الأخلاق بالعقل والذي يمتلكه الإنسان فحسب، على عكس العمل الحيواني الذي نعته بالآلي، وبحيث يرى "همبلوت" أنّ اللّغة عمل العقل، فعليه لابدّ أن تصدر من الداخل وليس عن السطح، وأنّ هذه اللّغة ذات شكلين: داخلي وخارجي، فالشكل الداخلي عضوي متلاحم وينتج عمّا يسمّى بالبنية العميقة للّغة، وهذه النظرة نابعة من نظرته إلى الطبيعة الإنسانية والحرّية الفردية، فالطبيعة الإنسانية ليست خاضعة للعوامل الخارجية، إنّما تتطوّر من داخلها، وهذا التحرّر من العوامل الخارجية يقود إلى العمل الخلاّق الذي يصدر بدوره من الداخل، أي من البنية العميقة للّغة.

وكما كانت الآراء الفلسفية والعقلانية هي المصدر الذي ارتكز عليه "تشومسكي"، فإنّه أيضا قد تأثّر بالنحو التقليدي، لأنّه في رأيه أكثر اقترابا من الطبيعة الإنسانية في دراسة اللّغة، ومّما لا شكّ فيه أيضا أنّه قد استفاد من بعض أفكار المدرسة البنيوية، ويرى "تمام حسان": "أنّ النحو التحويلي قد انسدل من النحو التوزيعي"[20]، مع التنويه إلى أنّ "تشومسكي" قد وازن بين تعاليم "بلومفيلد"(Bloomfield)، وهمبلوت و دي سوسير، ومنطقية بورﻳال(Boréale)، والمنطق الرمزي، وعلم النفس، منتهيا بالعقلانية في فهم اللّغة.

ومن هنا ربما يكون "تشومسكي" قد تأثّر بعلماء العربية ولاسيما بربط اللّغة بالجانب العقلي، فإنّ من أبرز علماء العربية الذين ربطوا اللّغة بالجانب العقلي :"ابن جني" و"عبد القاهر الجرجاني" و"الزمخشري"، لكن من أبرزهم الذي اهتمّ بظاهر"القدرة اللّغوية وأنّها ملكة عقلية لا دراسة الأداء اللّغوي هو "عبد القاهر الجرجاني" في نظرية النظم المتمثّلة في العلاقات المعنوية بين الأصناف النحوية، فهو يرى كما يرى "سيبويه" أيضا بأنّه ليس كل كلام منطوق مقبول، فهناك منطوق لغوي هو الذي يتحكّم وليس النسج حسب هوى كل متكلّم، وأنّ اللّغة توليد منطقي خاضع للجماعة الناطقة به، وتخرج كل الأنماط الجميلة على الصورة التأليفية الجديدة، ونحن لا نلمس سوى المظهر المادي للعملية، أمّا الجانب العقلي فهو داخل الصندوق".

فلو حملنا فكرة تأثّر "تشومسكي" بعلماء العربية محمل الجدّ لوجدناها ممكنة جدا نظرا لاتّساع حركة الترجمة قديماً وحديثاً، عدا عن أنّ "تشومسكي" نفسه قد أقرّ في جواب بعثه إلى الدكتورة "معصومة عبد الصاحب" رداً على رسالتها التي بعثتها له تسأله فيها عن بعض المسائل المشتركة بين اللّغة العربية والمنهج التوليدي الأمريكي، أنّه قد درس "نحو سيبويه في مقرّر متقدّم في اللّغة العربية في مدرسة للدراسات العليا بجامعة

بنسلفانيا مع الدكتور "فرانز روزنثال"(Franz Rosenthal)، الذي انتقل إلى جامعة "ليل". وعليه فنحن هنا لا نعدم وسيلة ما إلّا بعد واثقين من أنّ "تشومسكي" قد تأثّر بعلماء العربية أمثال "سيبويه" على حدّ تعبيره.

4.7) أسسها:

لقد قامت النظرية التحويلية لدى "تشومسكي" وأتباعه على عدّة أسس، ولعلّ هنا نذكر أهمها: والتي تتمثل في"

أ- التفريق بين القدرة والأداء[21].

ب-التمييز بين البنية السطحية والبنية العميقة، فالبنية الظاهرة أو السطحية هي: التركيب النحوي المسموع للجملة. والبنية العميقة: هي التركيب الأصلي المخفي للجملة المسموعة المنطوقة، فمثلا "كان محمد قائماً" بنية سطحية محوّلة من بنية عميقة هي "محمد قائم"، وقد أشار لهذا العلامة "عبد القاهر الجرجاني" (ت81هـ) إلى هذا النوع من البنية قبل علم اللّغة الحديث[22].

ج-اعتبار الجملة الوحدة اللّغوية الأساسية[23].

د- القدرة اللّغوية هي من طبع الإنسان وليست مكتسب.

8) الترسانة المفهومية للاتّجاه التوليدي:

تسعى كل نظرية جديدة إلى إثبات مكانتها ضمن الساحة المعرفية التي تشتغل فيها، وذلك بتبني جملة من المفاهيم الجديدة التي تمنحها التفرّد والتميّز من جهة، وتشكيل سند تقوم عليه ويكسبها مقبولية علمية من جهة أخرى. وهذا ما فعلته النظرية التوليدية التي استطاع مؤسّسها وضع جهاز مفهومي ضخم، يعدّ مرجع في الدرس اللّساني، ومن هذه المفاهيم نجد:

1.8) مفهوم القدرة / الكفاية (Compétence):

حدّد العالم اللّغوي "نيكولا رويت"(Nicolas Ruit) الكفاءة قائلا: "كل إنسان بالغ يتكلّم لغة ما، قادر في كل لحظة أن يصدر بشكل تلقائي أو أن يتلقّى ويفهم عددا لا متناهيا من الجمل التركيبية لم يسبق له فقط أن نطق بمعظمها أو سمع بعضها، كل إنسان يتكلّم إذا يملك بعض القدرات الخاصة جدا التي نسميها كفاءة"[24].

وهنا الكفاءة تظهر في معنى القدرة .

ومن خلال هذا القول، يتبدى جليّا أنّ الكفاية / القدرة هي معرفة المتكلّم-المستمع المثالي الضمنية بلغته منذ الطفولة، والتي تسمح له بتوليد جمل جيّدة لم يسبق له أن سمع بها، "فتشومسكي" ينعتها بأنّها مفهوم مجرّد، قائم في الذهن، إذ تعدّ بمثابة نظام مجرّد–مكوّن من قواعد تحدّد الشكل والمعنى الأصلي لعدد غير متناهٍ من الجمل الممكنة.

إنّ الهدف الرئيس من دراسة القدرة اللّغوية في وضع منظومة من العناصر المترابطة (نسق) من القواعد تساعد على توليد واستنباط كل العبارات أو الجمل في اللّغة. وهذا النسق من القواعد يقوم على ثلاث ركائز مهمة وهي كالآتي : المستوى التركيبي، المستوى الفونولوجي، ثمّ المستوى الدلالي.

2.8) الإنجاز اللّغوي/الأداء الكلامي (Performance):

ويقصد بالأداء/الإنجاز مدى أمانة الترجمة الفعلية لتعليمات القواعد أثناء إنتاج الكلام المحقّق أو فهم المسموع من الكلام.

إنّ الأداء الكلامي هو الاستعمال الفعلي للقدرة اللّغوية، أي تحقيق الكفاءة اللّغوية في جمل وأقوال يمكن ملاحظتها بكيفية مباشرة ملموسة، غير أنّ هذا الإنجاز يبقى نسبيا لاختلافه من شخص لآخر حسب اختلاف موضوع الكلام ومكانه، وثقافة الفرد، ومحيطه الاجتماعي والنفسي، كما يتأثّر بعوامل خارجة عن نطاق اللّغة، كالانتباه، التعب، الانفعال والذاكرة.

1.2.8) البنية العميقة:

وتتحدّد البنية العميقة(Structure profonde) بأنّها التفسير الدلالي للجملة، أي القواعد والبنى الأساسية التي يمكن تحويلها لتكوّن جملة اللّغة، إذن فهي مجموع القواعد المخزّنة في ذهن المتكلّم/السامع المثالي، والمتمظهرة في شكل بنى سطحية متعدّدة، أي أنهّا إفراز للمعنى، ما دام دور النحو التوليدي التحرّك داخليا من العمق إلى السطح اعتمادا على القوانين المحقّقة لهذا التحوّل.

وكما نجد أنّ البنية العميقة تتميز بجملة من الخصائص وهي كالتالي:

- تمثّل البنى الأولية المولّدة في قواعد النحو عن طريق المستوى التركيبي والمستوى المعجمي.
- إنها المجال الوحيد لإفراغ الملء المعجمي.
- هي كل البنى الخاضعة للتأويل الدلالي.
- هي البنى القابلة للتحويل إلى بنى سطحية سليمة[25].

2.2.8) البنية السطحية:

تعرّف البنية السطحية(Structure de surface) بأنّها ذلك التمثيل الصوتي للجملة[26]، أي أنّها البنية الظاهرة للعيان عبر توالي الكلمات وانتظامها في سلك الجملة من حيث النطق. فهي التركيب اللّفظي المشاهد الخاضع لتسلسل نحوي معيّن، ويقول في هذا الصدد "التهامي الراجي": "هي في اصطلاح التوليديين بنية الجملة كما هي منجزة فعلا، هي إذن البنية المرئية، الملاحظة التي يمكن أن توصف مثلا بألفاظ "المكوّنات الأولية"[27].

ومن هنا نستشف مّما سبق أنّ البنية السطحية(Structure de surface) تمثّل الحالة النهائية والأخيرة في التاريخ التحويلي للتوليد.

- متكلّم /مسمتع مثالي :

وما يقصده هنا "تشومسكي" بالمتكلّم/المستمع المثالي الشخص الذي تطابق كفايته اللّغوية إنجازه الكلامي، إنّه متكلّم/مستمع لا يخطئ، لا يسهى، لا ينسى، وهو الممثّل للعشيرة اللّغوية ومختزلها، وهو شخص غير متحقّق واقعيا، بل مفترض.

- الكليات اللّغوية:

يعدّ هذا المفهوم المرتكز الذي تستند عليه النظرية التوليدية، ذلك أنّ الهدف من الاتّجاه التوليدي عامة –حسب رأي "تشومسكي"- معرفة الآليات والعلاقات الجامعة والموحّدة بين الأنحاء الخاصة والرابطة فيما بينها في إطار ما يسمّى بـ "النحو الكلي" الذي يفيد وجود علاقة وثابت مشترك بين جميع الأنحاء المختلفة، وقد قسّم "تشومسكي" الكليات إلى: كليات مادية دَيْدَنُها معرفة السمات المشكّلة المادة لوصف اللّغات، وكليات شكلية تتعلّق بأنماط وظواهر القواعد النحوية، وإمكانات ربطها حتى نتمكّن من الوصول إلى الجملة النووية الحاوية للقاعدة النحوية المشتركة بين جميع الأنحاء.

•الانتقادات:

لا يسلم أي بحث علمي مهما بلغ صاحبه من العلم من الانتقادات، وعليه فمن جملة الانتقادات التي وجّهت لأصحاب هذه النظرية نوردها على شكل نقاط:

- الاعتماد على الحدس: فكثيرٌ من العلماء يرون أنّ الحدس شيء غير علمي، ولا تخضع للملاحظة المباشرة، بالإضافة إلى أنها متغيّرة وغير جديرة بالثقة[28].
- الاعتماد على الاستبطان: فبعض العلماء يرون أنّه من الاستطاعة أن نستبطن أشجار التركيب السطحي –مكوّناته- المرتبطة بجملنا، لكننا لا نستطيع أن نستبطن تراكيبها العميقة، وممّن ذكر ذلك العالم اللّغوي سامبسون(Sampson)[29].
- صعوبة تطبيق المستويات الأربعة للقواعد التحويلية: حيث من الصعب إذا أراد المتكلّم صياغة جملة، أن يبدأ في تطبيق القوانين الأساسية، ثمّ القوانين المفرداتية، ثمّ يطبق القوانين التحويلية، وينتهي به المطاف بعد ذلك إلى تطبيق القوانين المورفيمية الصوتية، وهذا بالطبع يستغرق وقتا طويلا إذا طبّقته مع كل جملة، وقد لا تتكوّن لديه جملة إطلاقا، وإذا ألزمناه بتطبيق هذه المستويات صارت القواعد التحويلية معيارية[30].
- عدم وجود قواعد تحويلية للّغة: وذلك لأنّ هذه القواعد هي في أساسها فرضية قائمة على الحدس والتخمين[31].

وما يستشف من هذا أن تشوسمكي حاول من خلال هذا الكشف عن عدّة قضايا وجد ظلّها في الفكر العربي القديم. كما أنّ جهوده يجب أن تثمن لأنّ ما قام به هو جهد جبار في مجال النظرية التوليدية والتحويلة، وبهذا كلهّا قد شاركت في فتح المجال أمام هذا البحث وإثراء الدرس اللّساني الحديث.

هوامش البحث :

[1] - بيار غيرو، علم الدلالة، ذكر سيمانتيك مشتقة من الكلمة اليونانية بمعنى دل على والمتولدة هي الأخرى من كلمة (بمعنى كلمة) بمعنى العلامة، ص ص7-10.

[2] - يانسن، من الترجمة المخطوطة التي أهداني إياها، عبد الفتاح البركاوي، ص:382.

[3] - أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص:22.

[4] - أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص:22.

[5] - ينظر الدلالة الاجتماعية واللّغوية للعبارة من كتاب الفاخر لعطية سليمان أحمد، خصائص الدلالية مع تطبيق نظرية الحقول الدلالية لفريد عوض حيدر.

[6] - أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص:210.

[7] - أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص:210.

[8] - ينظر جون ليونيز، علم الدلالة، ص:83.

[9] - أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص:140.

[10] - أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص:101.

[11] - عبد الكريم مجاهد، الدلالة اللّغوية عند العرب، ص:122.

[12] - ينظر في ذلك مجلة مجمع اللّغة، سنة 1992م، ص:81.

[13] - ياقوت أحمد سليمان، في علم اللّغة التقابلي، دار المعرفة، الإسكندرية، 1992، ص:27.

[14] - الخولي محمد، قواعد تحويلية للّغة العربية، دار المريخ، الرياض،1981، ص:22.

[15] - الراجحي عبده، النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص:112.

[16] - المسدى عبد السلام، اللّسانيات من خلال النصوص، الدار التونسية للنشر، الجزائر، 1986، ص:105.

[17] - نعمان بوقرة، المدارس اللّسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، 2003، ص:129.

[18] - جون ليونز، نظرية تشومسكي اللّغوية، تر: حلكمة خليل، القاهرة، 1995، ص:78.

[19] - جون ليونز، نظرية تشومسكي اللّغوية، تر: حلكمة خليل، القاهرة، 1995، ص:120.

[20] - تمام حسان، إعادة وصف اللّغة العربية (ندوة اللّسانيات واللّغة العربية)، تونس، 1978، ص:90.

[21] - عبد الله أحمد جاد الكريم، الدرس النحوي في القرن العشرين، ص:242.

[22] - سامي عياد حنا، معجم اللّسانيات الحديثة، ط1، 1997، مكتبة لبنان ناشرون، ص:34.

[23] - عبد الله أحمد جاد الكريم، الدرس النحوي في القرن العشرين، ص:242.

[24] - حافظ إسماعيلي علوي واحمد الملاخ، قضايا إبستيمولوجية في اللّسانيات، ص:96.

[25] - عبد القادر الفاسي الفهري، اللّسانيات واللّغة العربية (نماذج تركيبية ودلالية)، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000، ص:68.

[26] - حافظ إسماعيلي علوي واحمد الملاخ، قضايا إبستيمولوجية في اللّسانيات، ص:278.

[27] - التهامي الراجي، توطئة لدراسة علم اللّغة التعاريف، دار ناشرون، بغداد، العراق، ص:111.

[28] - حافظ إسماعيلي علوي واحمد الملاخ، قضايا إبستيمولوجية في اللّسانيات، ص:278.

[29] - الخولي محمد، دراسات لغوية، ص:52.

[30] - الخولي محمد، قواعد تحويلية للّغة العربية، ص:47.

[31] - عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، ص:142.